الفصل الثالث: القوة الإنجازية لبنية الحوار

(هذا الفصل يوضح شروط إنجازية الخطاب، وكيف يمتلك المرسل الوسائل الإقناعية لإحداث تأثيره في المتلقي، وموقع تحليل الخطاب القرآني من نظرية تحليل الخطاب، وكيفية الإفادة منها في كشف روعة الأداء القرآني وإعجازيته، وما المقصود بمبدإ الاسلتزام الحواري والتعاون، وعناصر الاتصال في الخطاب عند علماء تحليل الخطاب، وأطراف الاتصال في سورة سيدنا يوسف عليه السلام...).

للقوة عند أوستن علامات ست: الصيغة مثل (أغلق الباب) وتضاهي (آمرك) و(أغلق الباب إذا أردت) وتضاهي (آذن لك) ونغمة الصوت (تختلف نغمة التحذير عن السؤال أو الاعتراض...إلخ) وأشباه الجمل (التي يقصد بها تكييف قوة المنطوق مثل: (سوف أفعل) بإضافة (من المحتمل)، أو تكييف قوة النهي بالظرف مثل: (لا تنس أبدًا..) وأدوات الربط مثل (من أجل ذلك) التي تستخدم في قوة (استنتج) و(على رغم ذلك) التي تستخدم في قوة (أسلم بأن) ومصاحبات المنطوق (كأن تجعل منطوقك مصحوبا بحركة جسمية كإشارة الإصبع، أو غمزة العين...إلخ) وملابسات المنطوق (وهي تساعد مساعدة مهمة للغاية في تحديد الغرض؛ فالأمر يمكن أن يكون أمرًا، أو إذنًا، أو عرضًا، أو التماسًا، أو توسلًا، أو اقتراًحا، أو توصية أو تحذيرًا...إلخ)[١]. بالإضافة إلى دلالات الأفعال التي يمكن تقسيمها إلى:

---

(١) ارجع إلى نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، الدكتور محمد أحمد نحلة، مجلة الدراسات اللغوية، الرياض، م١، ع١، أبريل. يونيو ١٩٩٩م، ص١٦٢-١٦١، والمعاني الصريحة: المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها، وتشمل:
المحتوى القضوي: مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة إسناد.
القوة الإنجازية الحرفية: القوة الدلالية التي تستخدم العناصر التي تصيغ الجملة بصيغة أسلوبية، مثل: الاستفهام، والأمر، والنهي، والتأكيد، والنداء، والإثبات، والنفي وقد ميز أوستن (Austin)، بين نوعين من الأفعال:
أولهما: أفعال إخبارية تقريرية وصفية، يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب (constative)، والآخر: أفعال أدائية إنجازية(performatlive) لا تحتمل الصدق أو الكذب، مثل: التسمية والوصية والاعتذار والرهان والنصح والوعد، ارجع إلى: التداولية عند العرب، ص١٤٨.
ارجع إلى: مدخل إلى اللسانيات التداولية، دلاش، ص٢٢، ارجع إلى: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود نحلة، ص٤٤-٤٥.
هذا التقسيم الثلاثي يلائم قول الأصوليين في الأفعال، وقد طور سيرل نظرية الأفعال، وجعلها أربعة أنواع: فعل القول، وفعل القضية (الخبري والمرجعي)، والفعل الإنجازي والفعل التأثيري. ارجع إلى: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، نحلة، ص٤٠، وما بعدها. محمود عكاشة: تحليل الخطاب في ضوء نظرية أفعال الكلام، ص١٨٩-١٩٣.

obeikandi.com

الأفعال الإخبارية: وهي الأفعال التي يحكم عليها بمعيار الصدق والكذب، مثل: الجملة الوصفية والتقريرية، جملة تصف حقيقة واقعية (ربيته رجلًا).

الأفعال الأدائية: أفعال لا تصف الواقع، ولا توصف بالصدق أو الكذب مثل: الاعتذار والوصية والوعد والأساليب الإنشائية، وهي أفعال تصور لا تحتمل التصديق بالإثبات أو عدمه. وهناك تقسيم آخر على النحو الآتي:

الأول: فعل القول أو الفعل اللفظي: وهي أفعال تدل على قول أو فعل معنوي، وتسمى الأفعال القولية، وتتحقق من الجملة المفيدة التي تقوم على قواعد اللغة والمستويات اللسانية الأساسية: (المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي) ودور أفعال الكلام يكمن في إقناع المتلقي بمضمون الخطاب، وهذا يرجع إلى الاستنباط العقلي، فالخطاب يحتمل وجوهًا من المعنى والتأويل، ولا يقف المعنى عند ظاهر اللفظ بل يتجاوزه إلى التفكر والاستدلال والاستنباط، والأساليب الاستدلالية التي يقوم عليها الخطاب القرآني في جوهرها عناصر حجاجية ، يقضي فيها بمقتضى العقل والفهم والاستدلال وثبوت الحجة.

الثاني: الأفعال المقدرة: تسمى عند بعض الأصوليين «الفعل غير الصريح»، وهي التي تقدر في المعنى دون اللفظ، وهي نوعان: الفعل الضمني المطلق والفعل الضمني الشرطي أو اللازم، والأول: الذي يستدعي في الخاطر بذكر اللفظ دون اقتضاء؛ لتعلقه به في الواقع أو لتعلقه بشيء في ذهن المستدعي، كم يتذكر حدثًا ارتبط بالمذكور، والآخر: المعنى المستفاد من دلالة غيره عليه بمقتضى الاستدعاء والتلازم والاشتراط، فاللفظ المذكور قد يستدعي ذكر غيره، فيستحضره المتلقي في التفسير لتعلقه به، وقد يكون من لوازمه أو شرط وجوده أو فهم معناه، وبعضها يفهم بمقتضى قواعد اللغة النحوية؛ كدلالة المذكور على عامله المحذوف، ومنها في الخطاب (ربي) على تقدير النداء (أنادي ربي أو أناجي أو يا ربي)، وبعضها يفهم بمتقضى السياق اللغوي والسياق الخارجي.

الثالث: الفعل الأدائي: الأفعال التي لا تحتمل الصدق أو الكذب كالأمر: ففعل الأمر يتضمن الطلب، وهو: «استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه»، والنهي: استدعاء الترك بالقول ممن هو دونه على سبيل الوجوب، وهنالك مقاصد ثانوية في دلالة بعض الأفعال، مثل: النصيحة والسؤال وإجابة السؤال، وإصدار تأكيد وتضرعًا، والدعاء.

الرابع: الفعل الناتج عن القول أو الفعل التأثيري: وهو التأثير العملي للقول والاستجابة، وهذا خاص برد فعل المتلقي على القول، كقبول الدعوة، وإجابة السؤال، وامتثال الأمر[١]، وأفعال القبول: أقبل، أوافق، والقرآن الكريم عبر عن هذا الجانب لغة، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**﴾ [آل عمران:٣٧]، وكانت الكفالة بعد وفاة الوالد وانتقالها إلى المعبد، فقد نتج عن الفعل القولي (الدعاء) فعل واقعي، مثل فعل الكفالة الذي نتج عن انتقال مريم إلى المعبد.

الخامس: الفعل الوقائعي، ويسمى أيضًا الفعل الواقعي: الفعل الذي يعبر عن إيقاع الحدث في العالم الخارجي (المقام)، وقد جاءت بعض الأفعال تقرر وقائع خارجية أو تصفها، مثل: (وضعتها أنثى)، جملة صادقة تطابق الحدث المخبر عنه، وقد ترتب على تصديق الحدث في الواقع حكم مفيد، مثل: ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**﴾ [آل عمران:٣٦] تصديق كونها أنثى، ودليل الصدق في النذر كائن في التسمية «مريم» ومتحقق في انجياز ما اشترطته على نفسها من النذر، وما ترتب عليه من الاستعاذة ، وهي دليل الرضا بالنوع، وقد مثل هذا النوع الجملَ التي وافقت عرف العربية في سياق الحدث.

---

(١) إنجاز أفعال اللغة يكون خلال النطق بجملة أو عدة جمل في سياق مناسب لها، مثل قولنا: هل تستطيع مساعدتي في دفع السيارة؟ يدخل في إنجاز فعل الطلب، والإنجاز يتضمن معني الحدث والحركة التي تعني بالتغيير الدائم، وهذا التغيير يقتضي تغييرًا في العالم، والأماكن والأزمان والأفعال الإنجازية نوعان: أفعال تقوم في حال إيقاع الفعل مع زيادة حدث كنتيجة، مثل: فتح الباب، دفع النافذة دفعًا شديدًا، وأكل تفاحة، وأفعال تقع فيما يستقبل من الزمن، مثل: سأسافر غدًا. ارجع إلى: التداولية عند العرب، ص١٤٨، ١٤٩.

obeikandi.com

وقد عرضنا علامات القوة الست ودورها في القوة الإنجازية ، لتطبيقها على آلية الحوار المتمثلة في المرسل والمتلقي داخل سورة يوسف عليه السلام، ولأن الدراسة التداولية للغة تهتم ببحث أنماط الاستعمال اللغوي في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها كلامًا محددًا صادرًا من متكلم وموجهًا إلى مخاطب محدد بلفظ محدد، في مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرض تواصلي محدد»(١).

فإن علم تحليل الخطاب يتشابك مع الدراسة التداولية للغة في الاهتمام أساسا بتحليل الحوار، كما أنهما يقتسمان عددًا من المفهومات الفلسفية، واللغوية كالطريقة التي توزع بها المعلومات في جمل أو نصوص، والعناصر الإشارية والمبادئ الحوارية(٢).

وتحليل الخطاب متصل بعلم الاتصال أيضا، حيث يدرس قيمة الخطاب الحوارية، والتي تكتسب العلامة شرعيتها منها، من خلال تواصل المتكلم مع المتلقي، ومن ثم تتحقق قيمة العلامة ضمن الفضاء الحواري، ويرى الفيلسوف جرايس (١٩٧٥) أن للكلام دلالات غير ملفوظة، يدركها المتحدث والسامع، دون علامة معلنة أو واضحة، وفسر هذا بمثال: «ألا تزورني؟» فلا يفهم السامع من ظاهر الجملة أنها سؤال، بل يفهم أنها دعوة للزيارة، وقد اتجه البحث فيما يعرف بتحليل الخطاب إلى استنباط القواعد التي تحكم مثل هذه الاستدلالات أو التوقعات الدلالية، وهو مما يصل هذا الحقل بحقل آخر يعرف بـ «نظرية القول الفعل» و بالسيمياء أو علم العلامات، من حيث القواعد أو الأعراف التي تحكم إنتاج الدلالة.

لقد تحولت اللغة من النص إلى الخطاب في شكله التفاعلي، واستطاع فوكو أن ينقل الخطاب من الإطار التقليدي إلى مجالات أوسع، فرأى أن الخطاب عبارة

---

(١) د/ مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، ص ١٦ - ٢٦.
(٢) د/ محمود نحلة: آفاق جديدة، ص ١٠، ص ١١.

عن شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية، التي ينتج فيها الكلام، كخطاب ينطوي أيضًا على الهيمنة والمخاطرة، و إنتاج الخطاب في مجتمع ما إنتاج مراقب أو منتقي ومنظم ومعاد توزيعه، من خلال الإجراءات التي يكون دورها الحد من سلطاته و مخاطره ، والتحكم في حدوثه المحتمل، و إخفاء ماديته.

يرى جاكبسون أن عملية التخاطب (التواصل) وظيفة، فالمرسل تتولد عنه الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية والتي تكشف عن المضمر، والمتلقي تنتج عنه الوظيفة الإفهامية ، والمقام يولد الوظيفة المرجعية، و ينتج عن الخطاب الوظيفة الشعرية أو الإنشائية وعن الصلة أو قناة التخاطب، تتولد الوظيفة الانتباهية والتي تحافظ على الصلة قائمة بين طرفي الخطاب ، وتتولد عن وضع الخطاب الوظيفة المعجمية.

وقد رفضت نظريات تحليل الخطاب الحديثة التقيد بقواعد الجملة عند تشومسكي، وأظهر تحليل المحادثات اللغوية أهمية البعد الاجتماعي في دراسة اللغة، وقد أثبت تحليل متقدمي المفسرين المسلمين، أنهم كانوا على وعي ببنية الخطاب والعناصر المشاركة فيه، ومن ثم لم يفتهم شيء مما فات الغربيين في التحليل، ولم يتعصبوا لهوى أو لمذهب، لأنهم احتكموا إلى الدليل الشرعي واللغوي والعلمي، واعتمدوا على قرائن في تعيين الخطاب (القرائن: اللفظية والعقلية والعرفية و العوائدية – من العادة – والبيئية والزمنية والمعرفية ...).

وتاريخ المسلمين في البحث اللغوي لا يبارى في الكم والكيف والنضج والنتائج والعلمية، وهو علم مستقل ممتد في التاريخ ومتجذر في الثقافات، يدرسه اللغويون، ومن يستخدمونه أداة من علومهم، التي تقوم على معرفته؛ كعلوم الأصول والتفسير والتاريخ والمنطق والفلسفة والاجتماع والقانون والإعلام والسياسة، فهو مدخل في دراسة هذه العلوم، والبحث اللغوي الغربي الحديث

تتنازعه العلوم النظرية (الفلسفة والمنطق والمذاهب الحديثة)، فليس مستقلًّا عنها، وقد تأثر بالعلوم التجريبية، ولا يمثل البحث فيه مراحل متصلة، بل مذاهب متنازعة، تقوم على أنقاض مذاهب أخرى، وكل يثبت فساد غيره، أو نقصه، أو عجزه عن الوفاء بحاجة البحث، وهو ما زال في مرحلة البناء، ولم تتحدد معالمه المستقلة بعد، بسبب غلبة المذهبية عليه.

ومن ثم فإن مناهج التحليل الغربية لا تستوفي مكونات الخطاب وعناصره ومقاصده، ولا تمثل نسقًا عاما يصلح للتطبيق على كل اللغات والخطابات، ولكن يمكن الاستفادة منها في تحليل بعض العناصر التي تقع في حقل بحثها الدقيق.

والخطاب القرآني متميز في المضمون والأسلوب والحجاج والإقناع، والخطاب النسوي من أنواعه الفريدة التي عبرت عن قائليها وقائلاتها، وقد تضمن هذا الخطاب التفاعلي الأسس الرئيسة في أنواع الخطاب (الحوار، والمجادلة، والمناظرة، و المناقشة) ويعد الحوار أكثر أنواع الخطاب تفاعلًا، وقد استخدم الخطاب البنية اللغوية المناسبة لكل حوار وخصائصه وأسلوبه وعناصره البلاغية.(١)

كذلك يساعدنا مبدأ آخر وهو الاستلزام الحواري في الكشف عن القدرات الدلالية المحملة بها الحوار، ورائد هذا الاتجاه هو الفيلسوف (جرايس)، والتي كانت نقطة البدء عنده أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية الظاهرة، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه إلى السامع على نحو غير مباشر، اعتمادا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم، بما يتاح له من أعراف الاستعمال، ووسائل الاستدلال إذا أراد أن يقيم معبرًا بين ما

(١) محمود عكاشة: تحليل الخطاب في ضوء نظرية اتصال اللغة، ص١٤-١٦ بتصرف.

يحمله القول من معنى صريح وما يحمله من معنى متضمن، ومنها نشأت فكرة الاستلزام.

وهناك مبدأ التعاون الذي اقترحه (جرايس) في الإجابة على اقتراحين أساسيين كيف يمكن أن يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر، وكذلك كيف يكون ممكنا أن يسمع المخاطب شيئًا ويفهم شيئًا آخر.

يفترض (جرايس) أن مبدأ التعاون يجب أن يكون سائدا بين المرسل والمتلقي أو المتكلم والمخاطب، وهو الأمر الذي يقابله عند جاكبسون في نظريته الاتصالية، ما يسمى بالكود أو الشفرة التي يجب أن تكون متوفرة بين طرفي الاتصال[١].

وهذا التعاون الذي يعقده (جرايس) يقع تحت أربعة شروط:

مبدأ الكم quantity ويقصد به أن يجعل المتحدث إسهامه في الحوار بالقدر المطلوب دون أن يزيد أو ينقص عليه ويقابل المستمع في رجع الصدى، مبدأ الكيف quality ويقصد به ألا يقول المتحدث ما هو غير صحيح، ولا ما ليس له دليل عليه، مبدأ المناسبة relevance أن يجعل المشاركون كلامهم له علاقة بالموضوع، مبدأ الطريقة manner تجنب الغموض واللبس مع الإيجاز وترتيب الكلام.

وبما أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزًا، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحجة من أنفسهم، وتركهم على ذلك يتلكؤون، ثم هو الذي مثل لهم اليأس قائمًا، لا يتصل به الطمع، وصور

(١) انظر كتابنا: تحليل الخطاب السياسي دراسة في نظرية الاتصال اللغوي، ص ١١- ٤٧.

obeikandi.com

لهم العجز غالبا لا تنال منه القدرة... فلما ورد عليهم أسلوب القرآن، رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية وتخلف الملكة المستحكمة"[١].

على ذلك فإن إجراء البحث التداولي، وبخاصة على البنيات الحوارية الموجودة في بعض لوحاته الإعجازية، والإفادة من مبدأ الاستلزام الحواري، وكذلك مبدأ التعاون، ودورهما في التحليل سيفتح آفاقا جديدة وقراءات إعجازية مهمة حفلت بها هذه البنى الحوارية.

عناصر الاتصال في الخطاب

سبق الوقوف عند عناصر التواصل، وعند علماء تحليل الخطاب فإن الاتصال هو ممارسة الخطاب بين طرفين (المتكلم والمتلقي)، ويستحب في الاتصال: حسن المناسبة وملاءمة المقام، والخلو من التشويش والإعاقة في الاستماع، وتوظيف أدوات التأثير والإقناع الصوتية واللفظية والحركية.

وعناصر الاتصال التي تشارك في إنتاج الخطاب: المتكلم والمتلقي والخطاب والسياق (اللغوي والمقامي)، وينبغي تبني عدة تعريفات للسابق.

أولًا: المتكلم: بعض الباحثين يسميه المرسل، وهو ترجمة عن الغربيين، والأدق لغويًا: المتكلم، أو القائل، أو الكاتب، وهو المتلفظ بالخطاب.

(١) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٢٥.

وينتدب في قائل الخطاب: أن يكون أهلًا لما يقول، وألا يدعي خطاب غيره، مما ليس مسندًا إليه واقعًا ونعتًا، فلا يتلبس بخطاب غيره زورًا، وأن يكون طلقًا مفوهًا ومتمكنًا من لغة الخطاب وموضوعه وما يحيط به، والخلو من عيوب النطق (الفأفأة و الثأثأة والتردد والحبسة... في الخطاب المنطوق)، وسرعة البديهة وفيض الخاطر، والموضوعية والصدق، وحسن الخلق، والترفع عن الخنا، والتعفف عن القبيح، والكناية في غير المستباح وما يستحيا منه، وحسن التواصل واللين والصبر، ومراعاة أحوال متلقيه وأقدارهم وحال المقام، وحسن توظيف اللغة والعناصر المؤثرة، واختيار القول والظرف، وتجديد الاتصال، واستمراره بوسائل التنبيه والتنويع والإثارة وطبقات الصوت، وحسن الاستهلال والخاتمة، وحسن الخط والصياغة والديباجة والصحيفة (في المكتوب) وتهيئة المخاطب وتشريكه في الخطاب، ومحاورته ومساورته ومطاولته، ومعرفة غوره، واختبار رد فعله، والتجاوب معه، وتعديل الخطاب وتوجيهه وفق أحواله، وما يستجد منها، والزيادة مما يستجيده، وهجر ما ينفره، وتنشيط التلقي، وتكييفه حسب أحوال المتلقين، وتوزيع الأداء والأسلوب.

وقد أقرت السنة أركان التواصل مع الجمهور، وأهم ما سنته أن الكلام الذي قل ودل وكفى خير مما زاد وألهى، وإن من البيان لسحرًا وحكمة، وأن تخلل الناس بالقول النافع الموجز، أنجع من التكلف و التَّفيهق والإسهاب، وأن من أدب الكلام مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وأنه لكل مقام مقال، وألا تعرض قضايا أهل العلم والفهم عل العامة.

ثانيًا: المتلقي: المستمع في المنطوق والقارئ في المكتوب، وينتدب في المتلقي السامع: الاستعداد والتهيؤ لقبول التواصل والاستمرار فيه، وحضور الذهن، والإقبال على المتكلم، والإنصات، وتقبل الخطاب، والتجاوب على قائله، والتأدب، وتعزيز القائل، وتحفيزه بتعبير الوجه والحركة والإشارة.

ثالثًا: الخطاب: القول المنطوق أو المكتوب، ويتمثل في الكلام والحوار والمناقشة، والخطبة والرسالة، وكافة أشكال الكلام المفيد، ويستحب في لفظ الخطاب: الفصاحة والسبك والحبك، وملاءمة متلقيه وقدره، وفهمه، والمجانسة معه، وحسن المناسبة مع مقام القول، والخلو من الأخطاء والغرابة والتعقيد والاستغراق والتناقض والتفكك و التكلف.(١)

رابعًا: قناة الاتصال: اللغة والإشارة والرمز والاتصال اللغوي أكثرها استعمالًا، وهو ثلاثة أنواع: المنطوق والمكتوب والمسكوت عنه، المفهوم من المنطوق والمكتوب، كالنهي عن ضرب الوالدين؛ فهمًا من النهي في قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا**﴾ [الإسراء:٢٣]، فما علا التضجر بـ «أف» والسب، أولى بالنهي منهما، فالمفهوم من الخطاب المذكور جزء من دلالته، وقد ذكر منها المحدثون المنطوق والمكتوب فقط دون الثالث «المعنى المسكوت عنه لفظًا والمفهوم من لفظ غيره»، الذي تناوله الأصوليون المتقدمون.

خامسًا: سياق الخطاب: وهو نوعان: اللغوي والحالي (المقامي). الأول: سياق الكلمة والجملة في نص الخطاب، وهو العلاقة بين عناصر الجملة وعلاقتها بسياق الخطاب، والمعاني السياقية التي تتحقق من علاقة الكلمة بما جاورها في الخطاب اللفظي، نحو: عقد مؤتمر السلام بمقر الجمعية العامة للأمم المتحدة، والسلام تحية الإسلام ودار السلام عاصمة تنزانيا، لقد وردت كلمة السلام في سياقات لغوية مختلفة اختلف بسببها معنى الكلمة، ومنه معرفة معنى الكلمة، ومنه معرفة دلالة الكلمة في سياقها اللغوي: الدلالة العامة والخاصة والمطلقة والمقيدة.

(١) ارجع إلى البرهان في القرآن، الزركشي، دار المعرفة، ١٤١٠هـــ النوع الثاني والأربعون، وقد تناولها المؤلف مفصلة، وتناولها السيوطي في الإتقان. وانظر تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة،٢٩-٣٠.

والآخر: سياق المقام أو الحال، أو السياق غير اللغوي أو الخارجي، وهو ما يتعلق في العالم الخارجي: المتكلم والمتلقي والزمان والمكان والمحيط الخارجي والمجتمع، ويسمى في هذا ظروف إنتاج الخطاب، والمسلمون الأوائل أول من اعتدوا به في التحليل والتفسير واستنباط القصد، وهم أكثر دقة في تصنيفه وتطبيقه من الغربيين، وقد عملوا به في تفسير الخطاب القرآني منذ عصر النبوة، وسموه أسباب التنزيل أو النزول، وأفرد له علماء علوم القرآن بابًا في كتبهم.

والسياق باعتبار الإنتاج نوعان: أولهما سياق إنتاج الخطاب. والآخر: سياق تلقيه. ولكل منهما أثره في فهم الخطاب، والأول الأصل؛ لما فيه من القرائن الدلالية على القصد، والثاني قد يختلف عن الأول؛ لاختلاف المتلقي وعصر التلقي، فالصحابة رضي الله عنهم الذين واكبوا التنزيل وأحداثه أعلم بقصده من المتأخرين، الذين تلقوه مشافهة ودراسة دون معاصرة تنزليه. وطرفا الخطاب (المخاطِب والمخاطَب)، وسياقاه (الإنتاج والتلقي)، ووسيلة التواصل (القناة)، تؤلف ما يسمى عناصر «الاتصال» الآنفة، وهي مجموعة العناصر التي تعد من لوازم فهم الخطاب (قرائن فهم الخطاب)، وهي في القرآن الكريم: القائل أو المخاطب (الله تعالى)، والمخاطب (المخلوقات العاقلة ذات الإرادة المستقلة)، والخطاب (موضوع الخطاب ومحتوى الخطاب)، ووسيلة الخطاب (القرآن الكريم مسموعًا ومقروءًا)، وسياق نزول الخطاب (في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم)، وسياق تلقي الخطاب (عصر متلقي الخطاب)[1]، وقد توسع المتقدمون في بحث قرائن المعنى: اللغوية والحسية والعقلية والحالية والواقعية.

هذا وقد حددنا بنيات الحوار الموجودة في سورة يوسف عليه السلام مدخلا للتطبيق، عبر بحث آلية المرسل والمتلقي، وتحتوي سورة يوسف على

(١) ارجع إلى: تأسيس أصول التفسير وصلته بالبحث الأصولي، عبد الرحمن الحاج، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، العدد ٣٧، ٢٠٠٥.وانظر محمود عكاشة: تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، ٢٩-٣١أ.

أكثر من متكلم أو مرسل، وأكثر من مخاطب يتبادل كل منهما موقع الآخر، في تناسق وانسجام قصصي خلاب عبر استراتيجية الحوار المتقنة التي تبدأ بفعل القول (قال) على سبيل الحكاية.

ومن خلال تحديد أطراف الاتصال في سورة يوسف عليه السلام، يتبين لنا أن السورة احتوت على مادة (قول) في تنوعاتها المختلفة على النحو الآتي: الفعل في صورة الماضي «قال» على سبيل الحكاية المباشرة (٤٦) مرة. الفعل في صورة الماضي المسند إلى واو الجماعة على سبيل الحكاية المباشرة (٢١) مرة. الفعل في صورة الماضي بصيغة المفرد المؤنث على سبيل الحكاية المباشرة (٥) مرات. مادة (قول) في صيغة الأمر للمفرد (قل) (مرة واحدة). مادة (قول) في صيغة الأمر للجمع (قولوا) (مرة واحدة). مادة (قول) في صيغة المضارع للجمع (نقول) (مرة واحدة). مادة (قول) في صيغة الماضي لجماعة الإناث (قلن) (مرة واحدة). ماة (قول) في صيغة المضارع على سبيل حكاية الماضي بلم الجازمة (أقل). مادة (قول) في صورة اسم الفاعل (قائل) (مرة واحدة). والسابق يعني أن أحداث القصة جاءت على سبيل الحكاية في صورة قصصية منضبطة تعزز من آلية الحكي والحوار، على حساب البنيات السردية الأخرى، مثل الوصف والسرد، وإن احتوت السورة على أكثر من آلية، لكن آلية الحوار هي المسيطرة على الجو العام للقص.

ويغلب أيضا على الجمل الحوارية الموجودة في السورة بصورة إجمالية الطول البائن للتركيب الجملي مع سيطرة الفعل الماضي «قال» في افتتاحية القول بنحو (٤٦) مرة في مقابل اثنين وأربعين مرة لباقي صور المادة[١]، بما يعني تدخل الأزمنة وتنوعها في بنية القص.

(١) عبد الباقي. مادة (قول).

obeikandi.com

أما أطراف الاتصال في السورة، فيمثل فيها سيدنا يوسف عليه السلام الطرف الأساس عبر اشتغاله على (المرسل - المتلقي) حيث جاءت صورة المرسل (سيدنا يوسف) مع المستقبل، والذي يصوره الجدول الآتي:

المرسل	المستقبل	الآيات
سيدنا يوسف (عليه السلام)	الله جل جلاله	(٣٣، ١٠١ – ١١١)
	سيدنا يعقوب	(٤، ١٠٠)
	إخوة سيدنا يوسف	(٥٩، ٦٠ ، ٦٩، ٧٧، ٧٩، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٩)
	الملك	(٥٥)
	عزيز مصر	(٢٦)
	امرأة العزيز	(٢٢)(٢٦)
	أصحاب يوسف في السجن	(٣٦، ٤٢)
	الصاحب الثاني	(٣٧، ٤٨، ٤٩)
	الأسرة	(٩٩)
	فتيان سيدنا يوسف	(٦٢)
	إخوة يوسف	(٦٩)

obeikandl.com

وطبقا لما قال به البعض في أن المرسل الآني ليس أكثر من متلق سابق، كما أن المتلقي الآني ليس غير المرسل المستقبلي[1]، فإن السورة ترصد لانتقال سيدنا يوسف لمرحلة الاستقبال عبر الآيات القرآنية الآتية:

المرسل	المستقبل	الآيات
سيدنا يعقوب	سيدنا يوسف	(٥)، (٦)
امرأة العزيز	سيدنا يوسف	(٢٣، ٢٥، ٣١)
إخوة يوسف	سيدنا يوسف	(٧٨،٧٧،٦١، ٨٨، ٩٠، ٩١)
أصحاب يوسف	سيدنا يوسف	(٣٦، ٤٥، ٤٦)
عزيز مصر	سيدنا يوسف	(٢٩)

وهناك أيضا مواقف تم انعقاد الحدث الاتصالي فيها بصورة كاملة، كان سيدنا يوسف فيها مرسلا ومستقبلا في نفس الحدث الاتصالي أو العملية الاتصالية المتكاملة، مثل:

المرسل إليه	الآية	المستقبل	الآية	المرسل	الآية
امرأة العزيز	(٢٣)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٢٣)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٢٣)
امرأة العزيز	(٢٥)	(العزيز) (سيدنا يوسف)	(٢٦)	سيدنا يوسف والشاهد	(٢٦)

(١) فكري الجزار: فقه الاختلاف، مقدمة تأسيسية في نظرية الأدب، ص ٥٥.

المرسل إليه	الآية	المستقبل	الآية	المرسل	الآية
امرأة العزيز	(٣١)	(النسوة) (سيدنا يوسف)	(٣١)	(النسوة) (سيدنا يوسف)	(٣١)
الفتيان في السجن	(٣٦)	يوسف في السجن	(٣٧، ٣٨)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٣٩، ٤٠، ٤١)
الفتى الذي نجا في السجن	(٤٦)	يوسف في السجن	(٤٧، ٤٨)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٤٧، ٤٨)
إخوة يوسف	(٧٧)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٧٧)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٧٧)
إخوة يوسف	(٨٨)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٨٨)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٨٩)
إخوة يوسف	(٩٠)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٩٠)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٩٠)
إخوة يوسف	(٩١)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٩١)	سيدنا يوسف عليه السلام	(٩٢، ٩٣)

ويعتبر المثال السابق متوافرا على كل أطراف العملية الاتصالية داخل سورة يوسف، بمعنى أن كل مرسل سيغدو مستقبلًا وربما مرسًلا أيضًا في نفس الحدث الاتصالي نفسه، وتلك من خصائص القرآن الكريم التي نبه إليها الجاحظ

obeikandi.com

في عرضه لقصة سيدنا موسى بن عمران حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه: "﴿**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي**﴾ [طه:٢٧] رغبة منه في الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع[١]»، ونستطيع انطلاقا من السابق أن نحدد أطراف العملية الاتصالية، مع اختيار بعضها للدرس التطبيقي، لتكون منطلقًا لنظرية تحليلية عربية أصلية تفيد من معطيات الدرس اللغوي الحديث في تفسير مقاصد القرآن الكريم، ومع كثرة تعدد أطراف الاتصال داخل السورة اختار البحث بعضًا منها على نحو من التمييز لتكون منطلقًا لتطبيق الإجراءات التحليلية الخاصة بأساليب التعبير والتأثير والإقناع والمحاجة والاتصال في إيجاز.

(١) البيان والتبيين، ج١، ص ٨.

obeikandl.com